اضوَاء جَدِيدَة على دولة كندة من خلال آثار ونقوش قرية الفاو

● **د. عبد الرحمن الطيب الانصاري**
رئيس قسم التاريخ والآثار ـ كلية الآداب

ان الحديث عن دولة كندة حديث يطول وقد لا نصل فيه الى نتيجة وخاصة اذا ما أردنا أن نستعرض آراء النسابة والمؤرخين ، ذلك لأن عوامل كثيرة ساعدت على أن تجعل من كندة قبيلة ثم دولة تحاك حولها وحول أماكنها وملوكها الكثير من الاخبار التي لا نشك في أن الاعتماد فيها على الرواية الشفوية تسبب في البلبلة التي يحار فيها المؤلف • ولا يمكننا أن نلقي بالعصبية القبلية التي راجت في القرون الاولى للهجرة ، أن نلقي بها جانبا لأنها أثرت في مسار الحياة السياسية وفي الحياة الاجتماعية التي كانت تموج في دمشق وفي البصرة والكوفة وما بينها من البوادي والتي تستمد قوتها ونفوذها من تثبيت جذورها عبر القرون في الجزيرة العربية ، لكي تجد طريقها الى المجد ، وحتى تنفذ من خلال التنافس القاسي الى الصفوف الاولى في مجريات الاحداث • ذلك لأن الخلفاء كانوا يجدون فيها فرصة طيبة للحكم من ورائه اوان لم يتنبهوا الى أن الاستفادة من هذا الصراع القبلي محدودة ، ذلك لأن خسارتهم كانت أفدح مما يتصورون • فقد قصر الصراع عمر الدولة الأموية وأفقد العرب وهم مادة هذا الصراع سيطرتهم على مقاليد الامور منذ قيام الدولة العباسية رغم ما يراه البعض من أن الدولة العباسية كانت عربية ، أو بمعنى آخر قامت على أكتاف العرب ، الا أنه مما لا شك فيه أن نتصور أنه من المفروض أن يستعيد العرب تجمعهم ووحدتهم مقابل هذا التغير ، ولكنه على ما يبدو كان تغيرا بطيئا لم يشعروا به كما نعتقد أن الرخاء الذي أصاب العالم الاسلامي في بغداد والحياة الرغيدة التي استمتعوا بها أقعدتهم عن التجمع • الى جانب عوامل أخرى ليس هذا مجال ذكرها •

وهكذا نجد أنفسنا نقف حائرين أمام كثير من مجريات الاحداث في الجزيرة العربية قبل الاسلام ، ذلك لأن ظروفا خاصة خلقت للعرب تقليدا لم يعرفوه من قبل وهو تقسيم انفسهم الى مجموعتين كبيرتين هي مجموعة القحطانيين ومجموعة العدنانيين ، وكل مجموعة تحاول أن تضم اليها أكبر عدد من قبائل الجزيرة العربية، بل وصل بهم الأمر الى أن يضموا اليهم قبائل أذلها الاسلام لمواقفها المعادية من دعوة التوحيد وهذا ما نجده لدى القحطانيين الذين ضموا اليهم عادا وثمود · ولعب الشعر والشعراء دورا كبيرا في هذا المجال ، بل وأصبح فريق من القبائل يصطنع قصائد ليعزز مركزه كما فعل الأوس والخزرج وغيرهما من القبائل ·

وقد لعبت شخصية امرىء القيس الشاعر دورا كبيرا أيضا ، فقد كانت مادة خصبة نسجت حولها الأساطير لدرجة جعلت بعض مؤرخي الأدب يبدأون بالشك في تصديق وجود هذه الشخصية · كما لعبت أيام العرب كأنموذج للفروسية والبطولة والصراع القبلي الدامي ، لعبت دورا زاد في غموض الصورة التي يجري وراءها الباحث وفي تعقيدها ·

الا أننا مع ذلك لا نعدم وجود أخبار يحتمل قبولها واعتمادها كمنطلق لبحثنا ، وخاصة اذا ما رجحتها نتائج الحفريات الأثرية التي تجري في مناطق مختلفة من الجزيرة العربية وفي بلاد الشام ، مما أعاد الأمل الى امكان اعادة النظر في بعض ما يرويه المؤرخون وما يشير اليه الشعر العربي من أحداث ومواضع ·

واذا رجعنا الى قبيلة ودولة كندة وقرأنا ما كتب عنها في كتب التاريخ والأنساب ودواوين الشعر ، تظهر لنا مجموعات من علامات الاستفهام أمام كثير من نواحي حياتها السياسية والاجتماعية المختلفة ، وعلاقاتها بالقبائل الاخرى والممالك المعاصرة لها · وعلى كل فاننا لن نستطيع الاجابة على علامات الاستفهام ، بل سنحاول أن نضع معالم على الطريق علها تسهم في وضوح الصورة اذا ما تابعنا السير في أبحاثنا بروح علمية ودأب مستمر ·

دعونا نبدأ طريقنا بالبحث عن كندة القبيلة وكندة الدولة · يحاول مؤرخو الجزيرة العربية أن يجعلوا كندة قبيلة جنوبية ، فقد كانت تسكن أولا منطقة حضرموت ثم انتقلت الى وسط الجزيرة ، واصبحت لها السيطرة كدولة حتى شملت شرق الجزيرة ووسطها وجزء من شمالها وجزء من غربها ، أي أنها أصبحت تحتل رقعة اقل بقليل من رقعة المملكة العربية السعودية · ولكن يبدوا أن الأماكن التي تدور عليها وحولها قبيلة ودولة كندة ، كانت في الوسط الجنوبي من الجزيرة العربية ·

وتعالوا نستعرض أماكن ورد ذكرها في شعر امرىء القيس في معلقته لعلها هي الأماكن كان يرتادها في نطاق دولة كندة وهذا لا يعني أننا نجزم بذلك ولكننا نستخدمها لمحاولة القيام بتحديد أضيق من التحديد الكبير خاصة وأن امروء القيس هو أحد الشخصيات التي ارتبط تاريخها بتاريخ دولة كندة كوريث للعرش بعد موت أبيه الذي اغتالته قبيلة أسد · يقول امروء القيس :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل
بسقط اللوى بين الدخول فحومل

فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها
لما نسجتها من جنوب وشمأل

كدأبك من أم الحويرث قبلها
وجارتها أم الرباب بمأسل
ألا رب يوم لي من البيض صالح
ولا سيما يوم بدارة جلجل

فلنستعرض بعض الأماكن التي جاءت في معلقته :

سقط اللوى : سناف يقال له اليوم مشرف واسمه في الجاهلية شراف ·

الدخول : ماء عذب معروف بهذا الاسم يقع شمالي الهضب المعروف بين وادي الدواسر ووادي رنية ·

حومل : جبل قريب من الدخول في جهته الغربية الجنوبية يبعد مسافة نصف يوم من الدخول ·

توضح : أرض قريبة من الهضب يقال لها اليوم التوضيحات تقع عند جبل الحمل جنوبا والحمل جبل يقع جنوبي الهضب فجميع هذه المواضع بعضها قريب من بعض ·

المقراة : واد يصب الى جهة الجنوب بين الهضب والسوادة وقر حرف اليوم الى القمرا ·

دارة جلجل : وأما دارة جلجل التي عناها امروء القيس فهي باقية الى اليوم في بطن الهضب تقع في جهته الجنوبية الشرقية ويقال لها اليوم دارة جلاجل وهو الموضع الذي عناه عمرو بن الخثارم البجلي بقوله :

وكنا كأنا أصل دارة جلجل
مدل على أشباله يتهممهم

وهي دارة عظيمة تحيط بها هضبات باقية على هذا الاسم ·· وفي كتاب جزيرة العرب للأصمعي : دارة جلجل من منازل حجر الكندي بنجد ·

عرعرا : هو ماء في الهضب الواقع في المنطقة الجنوبية من نجد يقال لهذا الهضب اليوم هضب آل زايد · والماء يقال له عراعر معروف بهذا الاسم اليوم عند جميع أهل نجد وهو واقع في الجهات التي ذكرها امروء في أول معلقته ·

قيصر : موضع يقع من الأفلاج في الجهة الجنوبية الشرقية ، جبل فيه أبارق يقال له الجنبة ، وأرض يقال لها الأجحر فيها مياه ، وهي قريبة من الجنبة بين الأفلاج ووادي الدواسر ·

ماسل : الذي عناه امروء القيس هو ماسل الهضب وهو في وسط الهضب في عالية نجد الجنوبية ·

قرقرى : أرض باليمامة اذا خرج الخارج من وشم اليمامة يريد مهب الجنوب وجعل العارضْ شمالا فانه يعلو أرضا تسمى قرقرى فيها قرى وزروع ونخيل كثيرة ومن قراها الهزيمة فيها أناس من بني قريش وبني قيس بن ثعلبة ، وقرما والجواء والأطواء وتوضح · ثم يقول : وفي قرقرى أربعة حصون : حصن لكندة وحصن لتميم وحصنان لثقيف ·

فنحن نرى أن هذه المواضع تكاد تكون في منطقة واحدة هي المنطقة الواقعة في عالية نجد الجنوبية أو على وجه التحديد جنوبي خط المسافر من الرياض بعد تركه

لجبل طويق الى الداودمي وما حولها حتى وادي الدواسر جنوبا وهذا التقارب يجب أن نأخذه في الاعتبار ، لأن تلك الاماكن كانت أقرب الى نفس الشاعر لأنه قضى فيها أجمل أيام حياته ·

ثم دعونا نضيف الى هذه الاماكن التي جاءت في شعر امرىء القيس مكانا جاء في كتب البلدانيات وهو :

قرية : يقول البكري في معجمه : « قرية بفتح أوله واسكان ثانيه على لفظ الواحدة من القرى معرفة لا تدخلها الألف واللام : موضع بين عقيق بني عقيل واليمن » ·

ويقول الهمداني في الصفة : ثم رجعت الى الطريق من المقترب تريد اليمن قصد نجران فتشرب بحسي كباب الذي يقول فيه مروان بن أبي حفصة :

والعيس قد علت الدبيل وخلفت   بطن العقيق بنا وحسي كباب

فان تيامنت شربت ماء عاديا يسمى قرية الى جنبه آبار عادية وكنيسة منحوتة في الصخر » ·

وقرية هذه التي جاءت لدى الجغرافيين العرب هي على وجه التحديد ما يعرف الآن بقرية لدى سكان منطقة وادي الدواسر كما تسمى « قرية » الفاو لأنها في النقطة التي يتداخل ويتقاطع فيها وادي الدواسر بحاجز طويق في قناة تدعى الفاو أي فم القناة أو الوادي ·

ومن هنا يمكن أن نقول أن مجموع تحديد هذه الاماكن مع تحديد مكان « قرية » يعطينا فكرة عن المنطقة التي كانت تعيش فيها كندة خاصة اذا ما لاحظنا ما ذكره ياقوت عن قرقرى وأن فيها حصنا لكندة ، ثم نجد الهمداني يقول : فأما مراحل نجران الى العقيق فأولها الكوكب وهو قلت ، ثم الحفر ثم ثلاث مراحل ثم العقيق ، وسمي العقيق لأنه معدن يعق عن الذهب وهو لجرم وكندة ففيه الآن الكنادرة من كندة ·

وقد بدأ الاهتمام بقرية الفاو كمنطقة أثرية باهتمام بعض موظفي شركة ارامكو بها منذ الأربعينات ، ثم جون فيلبي الرحالة المعروف الذي عاد اليها مع

مجموعة من العلماء أهمهم آل ريكمانز سنة ١٩٥٢ وقد كانت ثمرة رحلتهم جيدة ، ثم قام ألبرت برحلته اليها سنة ١٩٦٩ ، ودرس مجموعة من النقوش التي جمعها ثم قامت جامعة الرياض برحلات متتالية منذ سنة ١٩٧٠ م ، وحفرت فيها حفريات تركزت على التل الكبير الى جانب بعض التلال الاخرى وبعض المقابر · ورغم أن النتائج بالنسبة للتل الكبير كانت باهرة اذ أننا نعتقد أنه كان سوق القرية لوجود دكاكين للبائعين وأسماء أصحاب هذه الدكاكين ، كما يعطي فكرة عن نوع البضاعة التي كانت تباع فيه ، وخاصة أنه يقع على حافة الوادي الذي يفصل بينه وبين الجبل · وصورة السوق تذكرني بوصف سوق المشقر الذي ورد وصفه في الكتب العربية ، فهو بهذا يعتبر أول سوق متكامل يظهر في وسط الجزيرة بشكل عام · وبجانب ذلك فقد وجدنا أحد الدكاكين يبدو أنه كان لخطاط القرية أو رسامها ، اذ وجدنا فيه رسوما لرحلة صيد للجمال ، كما وجدنا كلمة (ملك) مكتوبة فوق أحد الشخصيات المرسومة ، والشيء الذي يثير الاهتمام هو وجود كلمة كهل منتشرة بأشكال مختلفة ·

والى جانب ذلك اكتشفنا مقبرتين من نوع المقابر العائلية والتي لم تكتشف لها مثيلا فيما اطلعت عليه من حفريات في الجزيرة العربية ، والذي قد نجد لها شبيها في فلسطين وبلاد الشام في القرون الاولى للميلاد · وقد وجدنا المقبرتين قد نهبتا قبلا ولم نجد الا شاهد القبرين :

المقبرة الاولى هي لعجل بن هفعم وهذا هو نص النقش حسبما ورد :

١ ـ عجل / بن / هفعم / بن / لاخه / ربىل / بن / ه

٧ ـ شرىم / ومرتهنم / أبدم

٢ ـ فعم / قبر / ولهو / ولولدهو / وم

٣ ـ راته / وولدهو / وولد / ولدهم ·

٤ ـ ونسىهم / حرىر / ذوال / غلون / ف

٥ ـ أعذه / بكهل / وله / وعثر

٦ ـ أشرق / من / عززم / وونىم / و

٨ ـ بن / وكسم / عدكى / تمط

٩ ــ ر / أس م ى / دم / ول أر
١٠ ــ ض / س ع ر ٠

وهذا هو محتوى النص :

١ ــ عجل بن هفعم بني لأخيه ربال بن
٢ ــ هفعم قبرا وله ولولده
٣ ــ ومرأته وأحفاد أحفاده
٤ ــ ونساءهم الحرائر من آل غلوان
٥ ــ فأعاذه بكهل ولاه وعثر
٦ ــ أشرق من كل ضيق ووني
٧ ــ وشر زوجاتهم أبدا
٨ ــ من كل خسارة والا فلتمطر
٩ ــ السماء دما والارض
١٠ ــ سعيرا ٠

فنحن هنا نلاحظ أن النص يقترب الى حد كبير في مظاهره اللغوية من لغة الشمال ٠ كما أننا نجد ذكرا للمعبود كهل كمعبود رئيسي ، وعلى كل فهذا المعبود شمالي اذ كان من جملة معبودات الثموديين ، وهو معبود يشير الى القمر ، معبود القوافل ٠ فهل هذا كان معبده في قريته ؟

أما المقبرة الثانية فعليها بنـاء يعلو المقبرة مربع الشكل مبني مـن الحجر المسوى ٠ كما وجد بجانب البناء نصف علـوي بدون رأس لتمثال يذكرنا بتماثيل تدمر والأنباط كما وجدنا في هذا البناء العلوي قطعا فخارية نبطية يدل شكلها على أنها من أفضل أنواع فخار القرن الثاني الميلادي ٠ أما المقبرة فيبدو أنها بنيت في العصر الاسلامي اذ وجدت مع الرمال التي تملأ المقبرة نقشا اسلاميا لشخص يسمى زياد ٠ كما وجدنا شاهد القبر على عمق حوالي مترين من المنزل وكأنه ساقط من مدخل البناء العلوي ، وحروف النص سيئية الشكل بعكس النص السابق والتي تتخذ شكلا محليا ٠ وهذا هو النص حسبما ورد :

١ ـ قبر / معوىت / بن / ربعت / ذآل/ (م) (؟) (ث) / (ق)

٢ ـ حطنىن / ملك / قحطن / ومذحج / بنى /عل

٣ ـ ه / عبده / هفعم / بن / برن / ذ (أ) (ل) / آلأ

وهذا هو محتوى النص :

١ ـ قبر معاوين بن ربيعة من آل . . .

٢ ـ القحطاني ملك قحطان ومذحج بني عليه

٣ ـ عبده هفعم بن بران من ال ألا .

وهذا النص على قصره يثير كثيرا من التساؤلات عن هذا الملك الجديد الذي لم يرد له ذكر الا في النقوش الجنوبية ولا في الكتب العربية . فهو على ما يبدو قحطاني بسط نفوذه في « قرية » علي قحطان ومذحج ، بمعنى أن هذه المنطقة كانت تسكن من قبل هاتين القبيلتين بشكل خاص . فبالنسبة لقبيلة قحطان نجد أنها كان يحكمها ملك كندة في القرن الاول ق‌م . وهذا ما يشير اليه النص Ja 635 وهو أقدم نص يصلنا عن « قرية » التي تعبد كهلا. اذ يذكر النص أن أبكرب أحرس الذي كان قائدا للجيش للملك شعرم أونز ملك سبأ وذي ريدان قد حارب ضد مدينة « قرية » ذات كهل ضد ربيعة من آل ثور ملك ندكندة وقحطان وضد سادات مدينة « قرية » فما صلة معاوية هذا بربيعة من آل ثور ؟ انني أظن أن معاوية هذا وأعتقد أنه كان في القرن الثاني الميلادي ـ انما كان في فترة ضعف لكندة ، واستطاع معاوية وهو من قحطان أن يتملك عليها وعلى مذحج رغم أن مذحجا مرتبطة ارتباطا قويا مع كندة في النصوص الجنوبية وفي الكتب العربية . فالنص رقم Ja 576 يشير الى ارتباط كندة بمذحج والتي يذكر النص أن قتالا نشب بين الشرح يحضب من جهة وبين مالك ملك كندة وشعب كندة من جهة أخرى وذلك من سنة ٥٠ ـ ٣٠ ق م وكذلك النص رقم Ja 660 والذي يعود الى أوائل القرن الرابع للميلاد والذي يشير الى أن كندة ومذحجا كانت ضمن القبائل القوية في جيش شمر يهرعش ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنة . ثم نجدها أيضا في النص Ja 665 من جملة القبائل مع مذحج في جيش يسرم يهنعم وابنه ذرأ أمر وذلك من سنة ٣١٥ / ٣٢٠ م وان كنا نجد كندة بمفردها تشترك في حملة أبكرب أسعد وابنه

حسان يهنعم ملكي سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنة وأعراب طود تهامة فــي نقش Ry 509 سنة ٤٢٥ ــ ٤٣٠ م بمعنى أن كندة كانت تعيش في هذه المنطقة هي ومذحج وقحطان ولكن الغلبة كانت لكندة في المرحلة الاولى ثم لقحطان · أما مذحج فكانت قبيلة يحسب حسابها ولكن يبدو أنها مرتبطة برباط ما مع كندة ، ولعل هذا ما تشير اليه الكتب العربية عندما تتحدث عن نسب كندة ومذحج · فكندة هو ثور بن عفير بن عدي بن الحارث بن مرة بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ · ومذحج هو مالك بن أدد بن زيد الـــى آخر النسب · فعلـــى هذا فمذحج يقع في مرتبة الجد الثالث لكندة وهو عم الجد الثاني لكندة ·

ومن كل ذلك نرى أن معاوية بن ربيعة حكم في فترة لم تكن فيها كندة حاكمة لقرية ، ويبدو أن كندة قد ضعف مركزها بعد الحملة التي قام بها أكرب أحرس ، ثم حملة الشرح يحضب في النصف الثاني من القرن الأول قبل الميلاد اذ أننا لا نجد ذكرا لكندة بين هذه الفترة وبين فترة حكم معاوية بن ربيعة القحطاني ·

وهنا نلتفت الى نقش آخر وهو نقش النمارة الذي يعود تاريخه الـــى سنة ٣٢٨ ميلادية وصاحبه امروء القيس بن عمر ملك العرب كلهم ، فانه يشير في نصه الى مذحج · واذا نظرنا الى القبائل التي وردت في النص فاننـــا يمكن أن نلاحظ بأنها كانت مرتبة ترتيبا جغرافيا ، فهو قد بدأ بقبيلتي أسد ونزار في الشمال ثم نزل جنوبا الى مذحج ثم انصرف الى نجران مدينة شمر ، ثم اتجه الـــى قبائل معد · بمعنى أن امروء القيس قد حارب مذحجا في مكان ربما كان « قرية » ولعله سلكته التجارة والثقافة التي نجد آثارها واضحة في المكتشفات الأثرية ·

ومما يلفت النظر في « قرية » أن « كهلا » كان هو معبوده الرئيسي سواء في السوق أو في المقبرة ·

ومن كل ذلك نظن أن « قرية » المشار اليها في النقوش لا شك أنها هي « قرية الفاو » وأنها ذات المعبود « كهل » ، خاصة اذا ربطنا ذلك بارتباط المواقع التي جاءت في شعر امرىء القيس بمنطقتها ، وبذلك تكون « قرية » هي عاصمة كندة الاولى ، أو على أقل تقدير احدى حواضرها ، وان كنت أرجح انها العاصمة · وخاصة اذا نظرنا الى مساحتها والتي تعد كبيرة نسبيا ، اذا ما قيست بحجم مدن تلك الفترة في المناطق المجاورة ·

بعض المصادر والمراجع

١ ـ أحمد بن مكرم الانصاري
لسان العرب اعداد يوسف خياط ونديم مرعشلي . بيروت ، سنة ١٩٧٠ م .

٢ ـ مطهر علي الايرياني :
في تاريخ اليمن ، دار الهنا للطباعة ، القاهرة ، ١٩٧٣ م .

٣ ـ جونار أولندر
ملوك كندة من بني آل المرار، ترجمة عبد الجبار المطلبي، بغداد سنة ١٩٧٣م

٤ ـ محمد بن عبدالله بن بليهد
صحيح الأخبار عما في بلاد العرب من الآثار ، طبعة ثانية ، سنة ١٩٧٢ م .

٥ ـ حمد الجاسر
مدينة الرياض عبر أطوال التاريخ ، الرياض ، سنة ١٩٦٦ م .

٦ ـ ياقوت الحموي
معجم البلدان ، بيروت ، سنة ١٩٥٧ م .

٧ ـ عبدالله بن خميس
المجاز بن اليمامة والحجاز ، الرياض ، سنة ١٩٧٠ م .

٨ ـ محمد بن الحسن بن دريد
الاستقامة ، القاهرة ، سنة ١٩٥٨ م .

٩ ـ جواد علي
المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ، بيروت ، ١٩٦٨ ـ ١٩٧٣ م .

١٠ ـ الطاهر احمد مكي

امروء القيس أمير شعراء الجاهلية حياته وشعره ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ، القاهرة ، سنة ١٩٧٠ م .

١١ ـ احمد بن عبد الوهاب النويري

نهاية الأرب ، القاهرة ، سنة ١٩٥٤ م .

* * *

1. A.F.L. Beeston: Warfare in Ancient South Arabia (2nd. - 3rd. Centuries A.D.) Qathan Fase. 3, London 1976.
2. R. Dussaud: La Penetration des Arabes en Syrie Avant L'Islam, Paris, 1955.
3. G.R. Harding: An index and concordance of Pre-Islamic Arabian names and Inscription, Toronto, 1971
4. A. Jamme: Le Pantheon Sud-Arabe Pre-islamique, Le Museom, LX, 1-4 Louvain, 1947.
5. A. Jamme: Sabean Inscriptions from Mahram Bilqis (Marib) Baltimore 1962.
6. A. Jamme: Sabaean and Hassaean Inscriptions from Saudi Arabia Rome 1966.
7. A. Jamme: Miscellanees d'ancien Arabe IV, Washington D.C. 1973.
8. Ph. Lippens: Expedition en Arabie Centrale, Paris, 1956.
9. J.B. Philby: Two notes from Central Arabia, G.J. vol. 113, 1949.
10. J.B. Philbyn: Motor Trakes and Sabean Inscriptions in Najd, G.J. vol. 116, 1950.
11. G. Ryckmans: Les Religions Arabes Pre-islamiques, Louvain 1951.